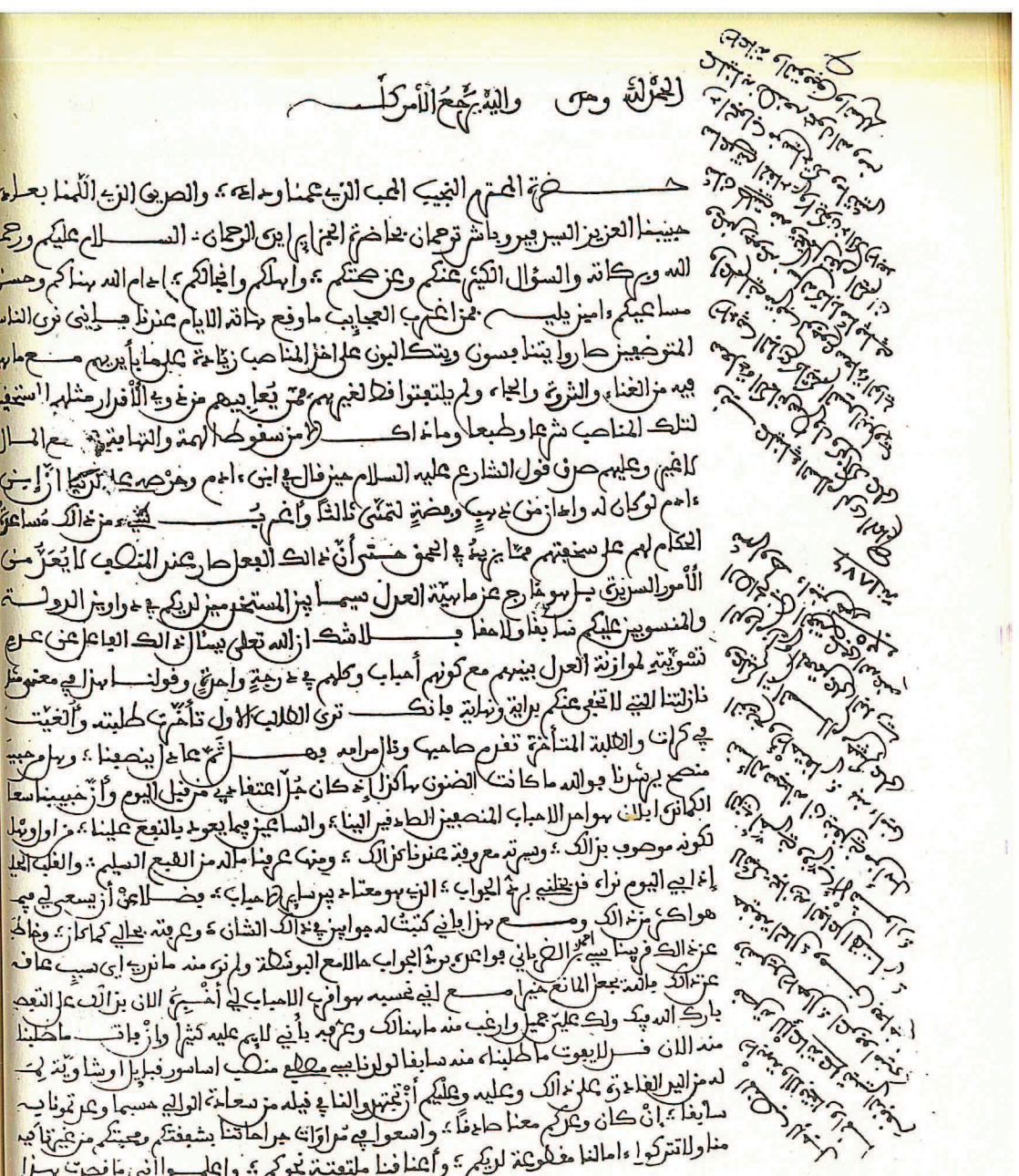

علم الآثار والهوية الوطنية

الشيخ قادر مظفر

مقدمة :

سجل النصف الثاني من القرن الخامس عشر للميلاد أعظم حدثين غيّرا مسيرة التاريخ بشكل كبير. ففي المشرق أدى تجمع العالم الاسلامي تحت راية واحدة الى انحسار المد الصليبي، وانتهى بسقوط عاصمة الامبراطورية البيزنطية (القسنطينية) في عام 1453. وفي المغرب ، نتج عن تجمع أوروبا تحت راية الفاتيكان، سقوط غرناطة في عام 1492. وهنا تحول البحر الأبيض الى ساحة صراع دامية بين الهلال والصليب، دام قرابة الثلاثة قرون ونصف القرن، وانتهى بسقوط مدينة الجزائر في عام 1830. فبدأت صفحة جديدة من التاريخ، تميزت بتفوق عسكري للشمال على الجنوب، رافقته مدرسة تاريخية ـ آثارية، فرضت منهجا تتبناه تلك المدرسة الاستعمارية التي يديرها اساتذة متفرغون للتاريخ والتدمير (التبشير)، وضعوا برنامجا في تدوين وقراء الاحداث التاريخية، والأوجه الحضارية والانثرولوجية والاقتصادية والسياسية لبلدان الجنوب.

وبطبيعة الحال، أحدث النظام الرأسمالي، الآخذ بالنمو، منذ الثورة الصناعية، الحاجة الى التوسع واقتناص الأسواق واستعباد الشعوب في طول وعرض النصف الجنوبي من الكرة الأرضية. فتولى المؤرخون الذين رافقوا حملات الغزو، مهمة كتابة التاريخ بالصيغة التي توافق برنامج «المدرسة الاستعمارية» ومراميها. استمرت هذه

الحالة وتنامت مع انطلاق أعمال التنقيب الأثري، عند بداية القرن الثامن عشر، بهدف البحث عن الكنوز الفنية، لملء القصور الأوروبية بروائع الحضارات التي ازدهرت في جهات متعددة من العالم الثالث المغلوب. الى جانب البحث عن مصادر الانجيل والتوراة.

ومع انبثاق فجر الثورات التحريرية للشعوب المغلوبة ، وبدء مرحلة الاستقلال الوطني، تم الالتفات الى اعادة النظر في صياغة التاريخ على ضوء التنقيبات الأثرية الوطنية، وتحليل مصادر التاريخ المدون. لكن هذا الجهد ظل محدودا بسبب القالب الذي تأطر به بعض المثقفين الجدد، بتأثير الثقافة الغربية المبرمجة على نحو خاص ، فصار هؤلاء ينقلون أو يرددون أقوال وتخريجات الباحثين الغربيين دون نقد أو تحليل.

ومن هنا تكون محاولتنا هذه مجرد جهد متواضع ومبسط، لايضاح بعض الأمور التي يجب أن يأخذها الجيل الجديد من المؤرخين والأثريين بنظر الاعتبار، عند محاولتهم استقصاء مصادر تاريخهم لصياغته بالشكل الموضوعي والمنطقي المجرد عن العواطف والسالم من اللوث الاستعماري.

علم الآثار ومفهومه وأهدافه:

قبل الحديث عن الآثار ودورها كمصدر أساسي لمن يود معرفة التاريخ لبلد ما، لا بد أن نشير الى أن البحث عن المصادر تمكننا من رسم اطار واضح قدر المستطاع لمجتمع ذلك البلد في كل جوانب حياته ضمن زمن محدد. سواء نشاطه الاقتصادي وممارسته التجارية وتكوينه البشري الاجتماعي الطبقي، ومعتقداته الروحية التي كانت تحدد تصرفاته حسب درجة قناعته بها. أو تنظيماته السياسية التي كانت توحد بين أفراد ذلك البلد أو تقسمهم الى درجات وجماعات صغيرة أو كبيرة، أو علاقاته الخارجية بالمجتمعات والدول المحيطة به، وكذلك الوسائل المادية التي كان يصنعها حسب ظروفه وبيئته ودرجة تقدمه الحضاري، معبرا بذلك عن وجوده وعن حصيلة تجاربه في كل جوانب الحياة العملية ونمط معيشته.

فالآثار اذا، تحتل المرتبة الأولى من بين تلك المصادر، فهي الصورة المادية الملموسة التي خلفها لنا مجتمع ذلك البلد أو الأقوام والبلدان التي كانت على تماس به.

فما هو اذا هذا العلم الذي نسميه بـ علم الآثار» أو «الاركيولوجيا»؟ نعلم ان علم التاريخ هو باختصار العلم الذي يدرس الماضي، وبما أن هذا (الماضي) متعدد الجوانب فهو جيولوجي ونباتي وحيواني وبشري وأدبي وفني وسياسي واجتماعي وتشريعي ونفسي.. الخ. فهو يتضمن اذا جوانب عديدة ومختلفة من الحياة ، لكنها ترى بمنظارين اثنين، أما أنها اضمحلت واختفت تاركة وراءها بعض المعالم أو انها ما زالت قائمة ومستمرة. فتأريخ هذه الأخيرة يكون اذا هو تاريخ تطورها وتغيرها واستمراريتها عبر الزمن.

أما «علم الآثار» فهو الذي يهتم بدراسة ومعالجة وتفسير القسم المندثر من «التاريخ». اذ يبحث وينقب عن آثاره ومعالمه المتبقية ويلاحظها ويفحصها ليستخلص منها النتائج العلمية والمنطقية المناسبة. وبطبيعة الحال، فقد تكون هذه المعالم اما فنية بحتة أو معمارية، وحينئذ يتدخل «تاريخ الفن» في الموضوع ، لكنه لن يتجاوز المحتوى التشريحي والطرازي وحتى المضمون الجمالي للقطعة الفنية والاحساس بنفسية ومشاعر المعمار أو الفنان نحو التأثيرات التي أملت عليه هذا الشكل أو ذاك من عمله الفني. بينما يكون عالم الآثار مركزا على اعتبار هذه التحف أو المظاهر التاريخية كشواهد لنشاط الانسان عبر الزمن وكدلائل لحضارة ما أو لتفكير اجتماعي، وهو يقوم بدراستها ليس لأنها أعمال فنية راقية فحسب وانما لكونها كنوزا من الوثائق فآلة بسيطة ما، قد تكون لها أحيانا قيمة عالية جدا عند عالم الآثار، تتجاوز قيمة تمثال رائع الجمال الفني، ذلك لأن تلك الآلة البسيطة تدله على تفاصيل عن حياة الانسان الذي صنعها واستخدمها أكثر بكثير من التمثال رائع الجمال. وهنا يجب الاشارة الى وجوب عدم الخلط بين «النقد الفني» الذي ينحصر دوره في التعريف بالعمل الفني أو الفنان المعاصر. وبين التعريف بهما وابراز أهميتهما في الواقع الحياتي. كما يجب تحاشي الخلط بين ذلك «النقد الفني» و«تاريخ الفن»، الذي حددنا مفهومه من قبل وقلنا عنه أنه واحد من الجوانب التي تعتمد في بعض الأمور على علم الآثار في منحى دراسة الأعمال الفنية. لأنه من الضروري أولا أكتشاف القطعة الفنية ومن ثم معالجة جانب تاريخها الفني.

وأما «تاريخ الأدب» فمهمته تنحصر في دراسة كل ما أنتجه الابداع الانساني في جانب الكتابات فهو يحلل تلك الانتاجات ويربط بينها ويبحث مصادر الوحي

فيها ويدرس التأثيرات الشخصية والحياتية للمؤلفين والتي طبعت مؤلفاتهم. بينما يرى الاثري في تلك المؤلفات بأنها مصادر ومنابع للوثائق التي تعينه على دعم تحليلاته الدراسية أثناء البحث وهو يعتبر أسلوب المؤلف أمرا ثانويا، بعد أن استخلص الوقائع والتواريخ والخطوط الكتابية من الك المؤلفات.

وهنا تبدأ مهمة قارئ الخطوط ، فبالاضافة الى مهمته في الترجمة، يقوم بتحليل وتصنيف أنواع الخطوط والاشارات والعلامات للتوصل الى معرفة منابعها ومعرفة التأثيرات التي طرأت عليها وطرز وأساليب عصرها ومكانها. فيستعين الأثري بهذه النتائج ليس من جوانبها الجمالية، وانما باعتبارها وثائق مساعدة. وبنفس الطريقة يستفيد الأثري من مصادر التاريخ الجيولوجي والحيواني والنباتي وغيرها كثير.

فعلم التاريخ اذاً يتكامل بل يعتمد على علم الآثار، رغم ان هذا الأخير يختلف عن العلم الأول، في اهدافه وطرق بحثه. اذا فتعريف «علم الآثار» بكلمة واحدة يصبح مستحيلا تقريبا، ذلك لأنه يعتبر، قبل كل شيء، نمطا من «المقالة» المتكاملة أو التركيب المعقد، يتجه هدفه الرئيسي نحو صياغة سؤال «كيف كان يعيش أسلافنا وكيف كانت طريقة تفكيرهم في المشاكل اليومية؟» والاجابة على السؤال تكون بتكريس الجهود على دراسة كافة أنواع الوثائق، مهما كانت طبيعتها، والتي قد تعين على القاء ضوء ما على ماضي الانسان. والأثري ليس، كما يحلو للبعض تسميته، «عالم دراسة الاحجار القديمة ! !»، ذلك لأنه رغم اهتمامه بتلك الأحجار فهو يحلول من خلالها العثور على أثر نشاط الانسان الغابر.

الحقيقة تبين ان عالم الآثار يتجاوز الاهتمام بعصر من العصور بل يستمر حتى «يوم غد». ومن المستحيل تحديد امتداده التاريخي طالما ان هناك «اليوم» وهناك «الأمس». ذلك لأن دراسة نمط ومسيرة الحياة في مدينة بابل ببلاد الرافدين وفي عصر حمورابي ـ مثلا ـ هو في نفس مستوى أهمية دراسة نمط ومسيرة الحياة في مدينة تاهرة في عصر عبد الرحمن بن رستم مثلا، أو مدينة غرناطة غداة احتلالها من قبل الملكة اليزابيت الكاثوليكية... وهكذا، ذلك لأننا نشهد في كل وقت ميلاد وموت البشر، وانماط وتقاليد حياتية مختلفة ، وأفكار وقوانين وأعمال فنية متنوعة. وميلاد وموت أدوات كان يستعملها الانسان في أموره الحياتية، وكذا طرز فنية تبناها

ذلك الانسان... لذا نقترح اصطلاح «الامس اللامحدود» على حقل بحوث علم الاثار، وبالتالي يكون من المستحيل رسم حدود معينة تفصل بين علمي الاثار والتاريخ (في البعد الزمني). وكما نعلم أنه من الصعوبة القيام بدراسة منهجية وعلمية لأحد هذين العلمين، ما نعمل على تقسيمها الى فروع في المجالين الزمني والمكاني.

يبقى الموضوع الأهم الذي يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار، وهو ان الانسان لا يمكن فصله عن الانسان، مهما كان لونه أو عقيدته أو أسلوب تفكيره أو مستوى حضارته أو العصر الذي عاش فيه، لذا فافضل تقسيم لحقل دراسة الاثار نراه على النحو التالي:

ـ علم الاثار ما قبل التاريخ، ويبدأ مع فجر الانسانية (العصور الحجرية) وينتهي بظهور أول آلة معدنية استخدمها الانسان.

ـ علم اثار فجر التاريخ، وهو اصطلاح صعب التحديد ولكن يمكن تعريفه بأنه الفترة التي تشمل كل الحضارات التي كانت تستعمل الأدوات المعدنية، قبل أن تتوصل الى اكتشاف الكتابة.

ـ علم الاثار لفجر الكتابة، الذي يبدأ مع أول اكتشاف للكتابة.

ـ علم آثار المرحلة التاريخية، ويشمل حضارات السومريين والكلدانيين والبابليين والفراعنة والاخمينيين والحيثيين والفينيقيين والأشوريين.

ـ علم الآثار الاسلامية، ويحوي «مكانا» يمتد من حدود الصين حتى جبال البرانس، و«زمانا» يبدأ مع القرن السابع ميلادي ويستمر حتى يوم «أمس».

مفهوم الهوية الوطنية والثقافية :

لقد دل التاريخ، على امتداد فتراته وتغير أطواره ، من أن مس الهوية الوطنية أو احتقار ثقافة شعب من الشعوب، كان دوما خزان البارود الذي عانت منه الانسانية من انفجاره بالويلات والدمار والاستعباد. والبديل لهذا هو الحوار والتكامل والوفاء للقيم الحضارية العليا التي يعتز بها كل شعب من الشعوب وينتسب اليها. فالمحتم اذا السعي الى محو آثار الالتباس التاريخي الذي أفسد علاقات الشرق والغرب.

منذ قرون عديدة ومهد للحروب الصليبية وبرر الاستعمار والاعتداء على

شخصيات الشعوب وعرقلة نهضتها، بحجة تحضيرها وانقاذها من التخلف. أما الفئة المتعايشة في اللغة والدين والوطن فالواجب ايقاظ همهم نحو خصائص تراثهم القومي والروحي، وانتزاع روح الجهل من نفوسهم التي خدرتها الفلسفة الاستعمارية وأظلتهم بمظلة الثقافة الغربية ، غير المهضومة من بعضهم. والتأكيد على كشف الطريق أمامهم ليكتشفوا ذاتهم وليعرفوا ان الوطنية والكرامة والاستقلال الحقيقي قد تبقى لحلها مظاهر خادعة اذا هي لم تستند الى رؤية حضارية أصيلة، بمقومات الكيان الفردي والجماعي الروحية والاخلاقية والفلسفية. ولن يتم هذا بغير الثقة في النفس والاطلاع على مناهل الفكر والعلوم والأخذ بأسباب العصر والاقدام على الابتكار والخلق والاجتهاد للوصول الى الحلول الجذرية للمشاكل المعقدة التي يطرحها علينا محيطنا الثقافي والاجتماعي والاقتصادي. والقناعة بان مستقبل البشرية هو مسؤولية مشتركة لكل الشعوب، تساهم كل الأمم، في صيانته وتحمل تبعاته. لا فضل لأمة على أخرى الا بدرجة عطائها ومبلغ مساهمتها الايجابية في سعادة الانسانية.

أما المجتمعات الغربية المتقدمة والتي نراها مشحونة بأسباب التفسخ والانحلال، بسبب انعدام الغاية فيها، فنراها مليئة بظواهر اجتماعية خطيرة، كانتشار المخدرات، وموجة الانتحارات في أوساط الشبيبة، وتلك نتيجة منطقية لحصيلة نفاد الموارد الطبيعية وانحسار الاستعمار الذي أعاد للشعوب المستغلة ثرواتها المنهوبة.

أما النهضة الأوروبية، التي يراها أصحابها بكونها حركة ثقافية، نراها المحرك الأساسي والمولد المزدوج للرأسمالية والاستعمار، اللذان أديا الى الاستهانة بحضارات أرقى شأنا من حضارة الغرب في علاقات الانسان بالطبيعة والمجتمع والنواحي الروحية. والا فكيف نفسر الابادة الجماعية للهنود الحمر في أمريكا خلال القرن السابع عشر، أليس من أجل السيطرة على مناطق المعادن الثمينة في القارتين الجديدتين؟ وكذلك كيف نفسر ازدهار التجارة الغربية، والمتمثلة في خروج البواخر من الموانئ الأوروبية، محملة بأتفه البضائع نحو افريقيا، حيث تباع مقابل شحنات من العبيد يباعون في أمريكا، ومنها تعود محملة بالسكر والقطن والمعادن الثمينة؟ وكنتيجة حتمية فقد نقل منهم الملايين الى القارة الجديدة، مات منهم في الطريق عشرة أضعافهم، فهل عرف التاريخ مثل هذه المهانة عبر كل مراحله؟

مقابل هذا، يحدثنا (اناتول فرانس) في كتابه الحياة الزاهرة، من أن «أشأم يوم في تاريخ فرنسا كان يوم معركة بواتييه، عندما تراجع العلم والفن والحضارة الاسلامية سنة 732 م أمام الهجمة الفرنكية». كما يحدثنا الكاتب (بلاسكوايبارين) في كتابه تحت ظلال الكاتدرائية، على أن «أحياء اسبانيا لم يأت من الشمال مع الطغمة الهمجية بل من الجنوب مع الفاتحين «العرب».

ان هذين النموذجين من أقوال الكتاب الغربيين غير التابعين للمدرسة الاستعمارية في التاريخ يضيعان أمام غزارة ما كتب من قبل تلاميذ هذه المدرسة ، والتي لخصها روجيه غارودي في كتابه: حوار الحضارات، بالقول «ان من المصائب الكبرى للتاريخ المكتوب هو أنه كتب من قبل المنتصرين الذين ارادوا دوما اثبات ان هيمنتهم كانت حتمية تاريخية وناتجة بالضرورة عن تفوق ثقافتهم وحضارتهم» وهذا ما يعيننا على فهم عقلية ومواقف بعض مثقفي العالم الثالث من ثقافاتهم، بعد أن قرأوا تاريخهم كما كتبه مستعمروهم.

فلنحدد الآن مفهوم «الهوية الوطنية والثقافية» بحالة نعيشها ، ولنجعلها مقياسا لحالات أخرى، تلك هي حالة الشعب الجزائري:

ولا بد في البداية من تحديد مفهوم «الشخصية الوطنية الجزائرية» ومميزات الشعب الجزائري الناتجة عن جملة من العوامل الاجتماعية والسياسية والبيئية، مر بها عبر تاريخه الطويل الحافل بالأحداث والمتغيرات. ولا يمكن فهم تلك الشخصية دون المرور عبر «خصائص الفرد الجزائري» وتلك الخصائص نراها في «مدخل التقرير حول التوجيه العام» الذي أصدرته اللجنة الوطنية لاصلاح التعليم في الجزائر:

«ان مسيرة الانسان الجزائري طوال تاريخه القريب والبعيد، أورثته مجموعة من الخصائص، ومعاناته الحضارية، ومؤسساته الاجتماعية اكسبته طائفة من الفضائل الاخلاقية، ومقاومته للاستعمار، منذ غلب على أمره، وهبته مجموعة من الخصائل النادرة، وتلك كلها تؤلف مجموعة من القيم السلوكية التي جعلت منه انسانا متميزا في حياته الفردية والجماعية.»

ولا شك في أن هذه الخصائص هي التي منحت ذلك الانسان الوجود السليم والوفاء للاصالة والاسمرارية على المقاومة، عبر سلسلة المحن والمعاناة ومحاولات

القهر التي استهدفت وجوده ومقومات ذلك الوجود. ولا ريب في أن هذه الأصالة مرتبطة بالشخصية القومية والروحية الأكثر شمولا من الحدود القطرية[1]. ومن هنا نرى تركيز القوى المحتلة تصوير الأمر للفرد الجزائري وكأنه بلا جذور تربطه بتاريخه الغني وحضارته السخية. محاولا بالتالي فصله عن لغته وعقيدته وماضيه الثقافي المتميز.

اذا، فتركيز علماء الاثار والتاريخ المرتبطون بمفاهيم الاحتلال، في بحوثهم على تاريخ الجزائر في العهد الروماني، مع اهمال متعمد لاثاره الاسلامية حتى عام 1830 ما هو الا محاولة لاقناع الجزائريين بأن أصولهم أوروبية في الماضي والحاضر. وان الفتح الاسلامي ما كان الا احتلالا عربيا وتركيا، ولدا فترة مظلمة من تاريخ هذا الشعب، والقاء نظرة على مناهج التاريخ والجغرافيا في عهد الاحتلال الفرنسي يشرح ذلك بكل وضوح. قابله الشعب بالاقبال على «جمعيات المدارس الحرة» في كامل التراب الجزائري، حيث التركيز على محاربة تلك المفاهيم الخاطئة بالتعليم الوطني الأصيل ضمن نطاق الثقافة الوطنية، باعتبارها الأمل الكبير في عدم ضياع الشبيبة الجزائرية في متاهات آلهتهم.

وننتهي بالاشارة الى رائد التاريخ الجزائري الحديث المرحوم أحمد توفيق المدني، الذي أنتج ـ ضمن الظروف الصعبة التي كان يعانيها ـ كتابه المعروف بـ «كتاب الجزائر»، الصادر في عام 1930، ليحاجج به الكثير من الأمور الخاطئة، بمناسبة مرور قرن كامل على احتلال بلاده، وليساهم في احياء التاريخ الجزائري، لكونه واحدا من المقومات الأساسية للشخصية الجزائرية ولهويته الثقافية.

الحقول التي يمكن اعتمادها في الربط بين عالم الاثار والهوية الوطنية :

المفروض أن يعني المؤرخ بحوادث وقعت وأدت الى نتائج محددة، لم تعد قائمة، لكنها انتجت أمورا أثرت في حياة الانسان والمجتمع المعاصر لها، وبالتالي خلفت آثارها في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والنفسية في حياة الأجيال اللاحقة. وبعبارة أخرى انها فعلت فعلها في بلورة خلفية تلك الأجيال وحددت الاطار المناسب لشخصيتها الوطنية. ومن هنا نفهم دور وأهمية علم الاثار الذي يسعى بالمعول والقلم، الى اظهار كل الدلائل المادية، لكي تكون المعين الوثائقي

في اعادة صياغة تاريخ الشعب المعني. وبالتالي تحديد معالم هويته الوطنية واصالته الثقافية. ونعني بالأصالة هنا، الاحاطة بما سبق نقده وتحليله والاتيان بجديد يغني الثقافة الشعبية. وعند هذه النقطة يبرز دور الجامعات الوطنية، التي يقع عليها العبء الأكبر في هذه المهمة نظرا لدورها في تكوين القيادات الفكرية، اكمالا للانسجام في مصطلح الأصالة، وتحاشيا للارتباك في استخدامه، لكي لا تتحول هذه الأصالة الى مجرد شعور حالم بتراث الأمة التي تحتاج الى امتداد واستمرارية حية نامية ومتطورة في واقعها وصيغة تراثها الذي تفخر به. باعتبار ان ذلك هو التعبير عن حقيقة أعماق الشعب وأبعاده التاريخية والمعاصرة معا.

ولنبدأ بمناقشة بعض الحقول التي تسهل «الربط» الذي نعنيه :

التاريخ :

أول تعارف بين الانسان و«التاريخ» يبدأ وهو طفل في المدرسة الابتدائية، ومع تقدمه في الدراسة يكتشف كتبا أخرى، تختلف عما عرفه في الابتدائية، وعندها يبدأ بالتساؤل لماذا هو يقرأ التاريخ؟ وما الهدف من دراسته لهذه المادة؟ فيواجه مشكلة تحسين فهمه لهذا «التاريخ»، فيبدأ بتحليل العبر التي يستخلصها من محتوى كتابه، فيرى انه عبارة عن «قصة حياة الانسان عبر الزمن»، ويعرف ان كل الأحداث التي مرت هي من صنع رجال ماتوا، فيكتشف انه هو الآخر وكل مجتمعه المعاصر له منهمكون في صنع صفحة أخرى من التاريخ مع اختلاف الأسماء والأعوام، وانه هو ومجتمعه سيصبحون قريبا على صفحات تاريخ آخر يقرأه جيل آخر بعده.

وعليه، فمن أجل أن نساعد «تلميذ التاريخ» هذا على هضم واستيعاب العبر المرجوة من دراسة التاريخ، لن يتم ذلك ما لم نعمل على ربط الأحداث التي مرت بشخصية «تلميذ التاريخ» وعززنا فيه الثقة بهويته الوطنية التي هي ناتج تلك الأحداث التي يقرأها. مع تحذيره بأن كتب تاريخه في السابق كانت تستهدف، قبل كل شيء، شخصيته الوطنية، وتحاول أن تمسخ هويته، بأسلوب منهجي ذكي وتذكيره بأن الحكمة في قراءة التاريخ أو دراسته هي معرفة الخلفية التي تسند حاضره، ثم تحذيره من الوقوع في مصيدة المؤرخ الذي يحاول أن يبرر ما يريد اختياره

من تسلسل معين للوقائع والأحداث واهمال الكثير ممن تدحض أهدافه. اذن ، فمهمة مبرمجي الدراسات التاريخية تعتبر مهمة خطيرة، اضافة الى دور مخططي برامج التلفزة والمذياع في مجال الثقافة بشكلها العام. وخطورة برمجة التاريخ ناتجة عن كون هذه المادة تختلف عن علوم كثيرة ، مثل الرياضيات التي تنتهي بنتائج لا جدال فيها يقبلها العقل، أو العلوم الطبيعية التي تلتزم بقوانين ثابتة، تعززها الاختبارات التجريبية ، لا يمكن رفضها أيضا، أو لغة من اللغات التي تخضع لقواعدها الثابتة.. الخ. أما التاريخ، فهو غالبا ما يناقض نفسه عبر الزمن، وهو خاضع له، ينقل لنا منه معلومات متغيرة ومتفرقة لم تثبت صحتها بعد.

ان مفهوم «لفظة التاريخ» في اللغة اليونانية هو، في أصله، فعل النظر أو شاهد العيان، فما مدى صحة هذه «الشهادة» التي تحكي لنا جملة من الأحداث التي عاشها البشر عبر قرون عديدة وعلى امتداد مساحات جغرافية متباينة؟ وهي بلا شك ستكرر في قرون تالية وعند أماكن أخرى بصيغة قريبة أو بعيدة عن الاحداث الأولى.

وبما أن المؤرخ أصبح، وفق تعريفنا اليوناني السابق، هو شاهدنا. فعلينا أن ندرس خلفية هذا «الشاهد» أولا ونستقصي جذور فكره واتجاهه والمدرسة التي ينتمي اليها أو يمثلها. لأنه هو الذي يرسم لنا لوحة الماضي التي نتأملها من خلال كتاباته. وكم من مؤرخ حاول أن يصيغ لنا «حقائق» من خلال نتف متقطعة في قصة عابرة أو حادثة ماضية لا قيمة لها. فسماها «عبرا تاريخية»؟

ومن المفيد التذكير بأن صناعة المؤرخ هي متابعة احداث الماضي، فهو بمتابعته هذه «الأحداث الماضية» يضيف قرونا مرت الى عمره ويحيا أكثر من حياة واحدة، ذلك لأن له ذاكرة وهو في كل لحظة يستحضر في ذهنه صور الاحداث وعبرها، فيحس انها حدثت ومرت وانتهت، ومن خلال أحساسه هذا يحاول أن يلقي ضوءا وافيا على صيغ تدوينه للتاريخ. كما يستعين بالوثائق المتوفرة ليدعم وجهة نظره، وبذلك يعكس لنا الأفكار والمشاكل القائمة في وقت كتابته لمؤلفه التاريخي. وهو كذلك يعكس لنا ذاته أولا قبل أن يحيلنا على المرحلة الزمنية التي اختارها كموضوع. وبالتالي يثبت لنا أنه كان يكتب الحاضر بصيغة الماضي، لأن هذا الحاضر تطلب العودة الى ذلك الماضي للاستعانة به في تأكيد الحاضر نفسه.

ولكي نقرب الى الذهن تحليلنا السابق لمفهوم التاريخ وأهدافه عند نفر من المؤرخين الذين يمثلون مدارس معينة، نورد بعض النماذج من أقوالهم، لنكون قادرين على بناء السور اللازم لحماية «هويتنا الوطنية»، يقول المؤرخ لويس فويو (1844):

«... ان أيام الاسلام الأخيرة تقترب ، ومن المؤكد ان قرننا الحالي (التاسع عشر) سيرى هذا الدين انحسارا عن تخوم أوروبا، التي غزاها وهددها خلال فترة طويلة، والتي امتدت لتشمل كل أوروبا القديمة التي حملت «الصليب». اننا نرى «الهلال» المحاصر من جميع الجهات وهو يتهشم وينمحي. ان الاله يدفع به نحو الصحارى حيث خرج منها. وقد حددت الحسابات المبنية على (ابوكاليبس) القديس جان ونبؤات دانييل ان حكم محمد سيدوم 13 قرنا فقط. وها هو القرن الثالث عشر (من حكمه) وهو لم ينتهي بعد، حيث سنرى بيزنطة (استانبول) وهي تسقط في يد المسيحيين. أما مدينة الجزائر، فهي بعد عشرين سنة سوف لن يعيد فيها اله غير المسيح. وبعد عشرين عاما أخرى ستصبح الاسكندرية انكليزية... فأين سيتوقف الصليب بعد أن تصبح كل من الاسكندرية والجزائر والقسطنطينية نقاط الانطلاق للصليب؟» ثم يقول «... واذا كان هناك شك بأن أرض الجزائر سوف لن تدوم لفرنسا، فمن المؤكد على الأقل بأن الاسلام قد فقد المعركة نهائيا». ويضيف «... مهما كانت نهاية الجزائر، سواء على يد الانكليز أو الالمان أو الاسبان أو الفرنسيين فانها ستبقى مسيحية، ولا مكان للاسلام فيها، وكذا سيكون مصير كل من تونس والمغرب قريبا. وتلك هي مشيئة الاله الذي يجب أن نشكره على تحقيق هذا النصر على أيدينا. وبعد ذلك فمهما يحصل يمكننا الفخر بأننا قد نجحنا في تتمة المحاولات التي لم تكتمل للصليبيين من قبلنا... وقد أنجزنا ذلك باضافة صفحة ما زالت تكتب بدمائنا».

ويخبرنا لويس فويو أيضا بأنه كان ضيف الجنرال بوجو في عام 1841 عندما عين حاكما عسكريا عاما للجزائر، فيقول : «... بعد عشر سنوات من الجهود ، كنا نرى أن عملية الغزو وقد تقدمت أقل مما تم تحقيقه في الأيام الأولى منه (!!). فقد نظم العرب صفوفهم، وكانوا منتصرين الى حد ما. وكنا نحارب بشكل سيء وادارتنا مرتبكة وحكامنا سيئون. وعمليات الاستيطان كانت صفرا. صحيح كنا

نسيطر على بعض المدن هنا وهناك بامتداد الساحل وفي عمق محدود من داخل البلاد، لكننا كنا سجناء في داخلها. فالحرب ما زالت تدوي عند أبواب وهران وقسنطينة، وكنا نحتاج الى مدافع لكي نتمكن من الانتقال من مدينة الجزائر الى البليدة، وكنا نحتاج الى جيش كامل من أجل تموين حامياتنا المحاصرة في مليانة والمدية، لكن هذا الجيش المتحرك كان محاصرا من قبل جيش آخر غير منظور، كان يحرم على أي عربي أن يتعامل مع المسيحيين. وهذا الأمير عبد القادر كان يناور معنا بالحرب وبالمفاوضات، حيث كنا نحس بوجوده في كل مكان، ولكننا لا نراه في أي مكان... وكان العدو يقتل جنودنا بطريقة غير مرئية وأكيدة، وما كنا نسميه بمستعمرتنا مدينة الجزائر، ولم تكن في حقيقتها سوى مستشفى داخل سجن... اذن فلماذا لم يعتنق الجزائريون المسيحية، لأنهم لم ولن يصبحوا فرنسيين، وطالما لم يصبحوا كذلك، فلن يكون في مقدور أي جيش ضمان السلام ولو لشهر واحد في هذه البلاد.»

ونكتفي بهذه الأمثلة لنعود الى التساؤل كيف يمكن فهم أو تفسير مؤرخ «شاهد» عاش احداث احتلال الجزائر وهو معاصر للثورة الفرنسية التي كان شعارها «الحرية - الأخوة - المساواة»، وهي الثورة التي هاجمت الكنيسة المسيحية، واتهمتها بكونها سند للاقطاع والاستغلال والاحتكار في المجتمع الفرنسي؟ وكيف يمكننا تفسير اعادة طبع هذا الكتاب وبشكل أنيق من قبل دار كبيرة في باريس، وبعد ستة عشر عاما من استقلال القطر الجزائري؟ ثم كيف نفهم قصد دار النشر باعادة طبع هذا الكتاب بعد 134 سنة من طبعته الأولى، ان لم يكن الهدف اعادة تنظيم الحرب الصليبية الثالثة بعد فشلها في القدس وفي الجزائر (بفضل الاستنجاد بالأخوين: عروج وخير الدين).

ان الاجابة الشافية لكل هذه التساؤلات تقع على عاتق المؤرخين والأثريين الاكفاء، وخاصة منهم الجزائريين، الحريصين على صيانة الاطار اللائق للشخصية الوطنية وحمايتها من التلوث والارتباك.

الفن والعمارة :

اذا كان (هيرودوت) و(ارسطو) قد عبرا بوضوح عن فكرة اختلاف احساس

الأوروبيين (بالديمقراطية) ورضوخ الأسيويين للعبودية، فان هذه الأفكار ما زالت محتضنة من قبل مؤرخين من احفادهما في أروبا وغيرها. بل انها تطورت وزادت في غلوها وتطرفها، رغم ان الحقائق التاريخية تشير وتؤكد على ترابط متكامل بين حضارات وثقافات حوض البحر المتوسط.

لكن أحداث القرون الوسطى تعكس لنا وجها آخر لمثل تلك الفلسفات، فقد كان الاسلام سيد البحر المتوسط المتحضر وما حواليه، فظهرت الحركة الدينية التي تدين «الحضارة البربرية» وتطرح فكرة «المسيحي والكافر». ففي الوقت الذي يجل فيه القرآن السيد المسيح نرى (دانتي) في كوميديته الالهية وهو يلقي بالرسول محمد ﷺ وأتباعه (رضوان الله عليهم) الى الجحيم، وفي عين الوقت نرى أوروبا خلال القرن الثالث عشر معجبة ومبهورة بالحضارة المادية والثقافة المرفهة في الشرق[4].

أما القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الأوروبيين فقد رأينا فيهما الأثريين والفنانين وهم يبحثون عن مصادر الفن والثقافة والجمال. وقد ادى اطلاع الفنانين الغربيين على كنوز الشرق المنسية الى نوع من الاخصاب الغني في مجالات الفنون التشكيلية والرسم، وبالتالي الى اعادة النظر في تاريخ الفن ودحض مبدأ الامتياز الأوروبي الذي احتكر مادة تاريخ الفن وحصره بالغرب فقط، حتى مطلع القرن العشرين. وأما اسطورة «المعجزة اليونانية» فقد تبين للباحثين الى أن جذورها تمتد الى الحضارات المصرية والفينيقية وبلاد الرافدين. كما أوضحت بحوث عصر النهضة مدى تأثرها بفنون الاسلام، التي كانت تشكل وجها آخر من علاقة الانسان بالكون وعلاقة الانسان بأخيه الانسان، والانسان بمستقبله القريب والبعيد.

وإذا ما استوعبنا الدلالة الروحية للفن الاسلامي وأدركنا علاقة ذلك الفن بمبدأ التصوف، يمكننا أن نفهم صيغه ومفرداته التشكيلية ومدى تعبيره عن تصور الكون وتركيبه. ذلك لأنه يرفض التقليد الاستنساخي للمخلوقات، تحاشيا من الانزلاق في عبادة الأوثان التي حاربها، ودعا بالوحدانية، فضلا عن ان مثل ذلك التقليد يصرف ذهن المؤمن عن التوجه الى الخالق مباشرة، ودون واسطة.

وان نحن ألقينا نظرة فاحصة على تركيب بناء المسجد لوجدناه يختلف عن الكنيسة والمعبد الوثني في زخرفته وتخطيطه واضاءته وأسلوب الصلاة فيه، فهو ليس

تربيعي مثل المعبد الاغريقي ولا طولي مثل الكنيسة، بل انه عرضي، يسمح لأكبر عدد من المصلين ليسووا صفوفهم كتفا بكتف، وتلك ظاهرة اجتماعية بالغة الأهمية توحي بالمساواة وتنفي الطبقية والكهنوتية المعروفة عند غير المسلمين. أما الزخارف النباتية والهندسية والألوان الزاهية فهي عناصر تزيد البناء جمالا والروح اطمئنانا وراحة، دون حاجة الى تماثيل تراجيدية أو لوحات قاتمة أو اضاءة مرهبة. وبهذا تتحقق في بيت العبادة المهمة الوظيفية والتجريدية الموسيقية المتكاملة، لأن الصلاة عملية تأمل عميق وليست مسرحية.

ولو تأملنا في جزئيات التركيب المعماري في المسجد، فان أولى العناصر التي تشد عيوننا اليها هي تلك التشكيلة المتنوعة من الأقواس التي تشكل نوعا من الألحان الهادئة. فمن القوس الحدوية الى القوس المدببة، ومن الهيكل الطاقي الى القوس المقرنص وغير ذلك من التراكيب المنحنية الرشيقة المستندة غالبا على أعمدة رشيقة تنتهي بتيجان تبرز لنا روعة التنسيق بين الزخارف النباتية والهندسية لتضيف وقارا وبهاء الى مبنى بيت ولتوحي للمؤمن الذي يرتاد المسجد الهاما روحيا هادئا.

وقد أوحت السمفونية المعمارية الاسلامية خلال مجدها في القرن العاشر وحتي القرن الثالث عشر، مقاطع من ألحانها للبناء المسيحي في آسيا الصغرى وشبه جزيرة ايبريا (اسبانيا)، فنمق الكثير من كنائسه بها، وامتد هذا التأثير ليصل شمال فرنسا. كما تحكيه لنا كاتدرائية شارتر بطراز أقواسها المنضودة والمتعانقة، فتذكرنا بملامح جامع ابن طولون بالقاهرة، وخاصة تراكيب سياج سور الجامع. أما مكان الوضوء في المسجد، فهو ينقلنا الى عالم الابداع في رسم الخطوط وينعش احاسيسنا بالنافورات التي تلقي بمياهها الزاقصة باستحياء ورشاقة، تتكامل مع انحناءات الأقواس والعقود المنتظمة والأعمدة الرشيقة والمنحنيات الجذابة، وهل هناك مثل أروع مما تمثله أعمدة وأقواس مساجد قرطبة واشبيلية في نقل أجواء واحات النخيل الى الاندلس؟

أما مساجد طاشقند وبوخاري واصفهان فهي تعكس لنا من خلال قبابها الخيام الأسيوية المشعة بضياء ذهبي أخاذ، فضلا عن تناسق الألوان والخطوط الذي يذكرنا بالألحان الموسيقية لتلك البقاع. ورغم كل هذا التنوع والجمال المعماري، فان البناء المسلم لم ينس الوظيفة الأساسية لبناء المسجد اذ ظل حريصا على عدم الفصل بين المشاعر المادية والروحية للمؤمن، والتزم دوما بقواعد هندسية أمينة على مصدر

وحيها الأساسي الأول (مسجد المدينة). كما كان موفقا في جعل الفن الزخرفي ملتزما في الجمع بين التجريد والوزن. وأعطى معنى للطبيعة الموسيقية وللعقلانية الهندسية، فجعلها يؤلفان عناصر اللغة الحضارية في هذا الفن، ولمفهومها في النظام الكوني، وذلك عندما زين المسجد بآيات من القرآن الكريم وهي تتداخل بألوانها وانحناءاتها بين الأغصان والأوراق والأشكال الهندسية التي لا نهاية لها، فأضافت بذلك جمالا الى الجمال المعماري، حتى ان مؤرخي الفن الغربي وأثريهم يجدون صعوبة في الحديث عن الكتابات الكوفية المسطرة على واجهة كاتدرائية (بوي) بفرنسا، فكانوا يفسرونها بمجرد أشكال زخرفية في حين أنها التوقيع الاسلامي الذي يعبر عن الشخصية الحضارية للاسلام الذي امتد تأثيره الى تلك البقاع.

ونستخلص، ان هذا الفن وتلك العمارة التي أبدع الاسلام في تشكيلها، يعتبران ثروة ثقافية وحضارية في الحضارة الانسانية، ويعتبران شهادة خالدة عبر الزمن لعراقة الشخصية الاسلامية والعربية، رغم تعدد الأجناس والألوان واختلاف الثروات وامتداد الأرض. وهي حافز على اعادة النظر في عقد الغرور والاستعلاء ونزوات السيطرة والاستغلال واحترام خصوصية كل ثقافة، لأن ذلك حق وواجب، ولأن تجاهل مساهمة الشعوب في اغناء التراث الانساني هو الاصرار على محو شخصيتها وتشويه لهويتها الوطنية. فمن المصيبة أن يكتب التاريخ منتصر يحاول الايهام بأن سيطرته كانت حتمية تاريخية فرضها تفوقه الثقافي والحضاري، والمصيبة أكبر عندما يتبنى بعض «مثقفينا» تلك الآراء بعد أن «درسوا» أولئك «المؤرخين» و«الأثريين».

النصوص المدونة :

ونسميها بالمصطلح العلمي الحديث «الباليوغرافيا»، أي علم دراسة النصوص القديمة المدونة. وهذه ذات دور هام في التعريف بالجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية وبالشخصية الوطنية لأصحاب تلك النصوص المكتوبة قديما. فانتشار نص معين مكتوب بلغة أو لهجة محددة، في مناطق متباينة، يشكل دليلا على انتشار المجموعة البشرية التي كانت تتحدث بتلك اللهجة أو تكتب بتلك اللغة في مناطق اكتشاف تلك الكتابات، أو انها يمكن أن تدلنا على تواجد مجموعة بشرية

معينة في تلك الأماكن ، كما أن وجود كتابات بلغات مختلفة، في منطقة جغرافية معينة، يثير غالبا الى أن تلك المنطقة كانت مكان تلاقي أو مرور للمجموعات التي كانت تتحدث باللغات المكتشفة. وأسباب التلاقي أو المرور قد تكون اجتياحا عسكريا أو تعاملا تجاريا أو توافقا دينيا يقوم، بتأثيره، قوم بعيدون بانشاء نصب رمزي لاله معبود لهم في تلك المنطقة، مع تدوين تفاصيل واحداث على ذلك النصب لتخليد ذكرى منشئ النصب. وهذه معلومات تعين الأثري على دراسة ومعرفة أسماء الحكام والملوك والالهة والشعوب المختلفة في لغاتها والمتقاربة في تقاليدها، إضافة الى معرفة الاحداث التاريخية وأزمانها حسب ما مدون على الانصاب المكتشفة.

ومن هنا تبرز أهمية جمع وتصنيف وتحليل جميع الكتابات القديمة المكتشفة في القطر الجزائري والانعكاف على استخلاص الحقائق المتعلقة بدور شعب هذا القطر ومعرفة مدى امتداد جذوره في التاريخ، وبالتالي تحديد اطار هويته الوطنية بالصيغة العلمية الصحيحة، بعد دحض التخريجات المستهدفة تلك «الهوية» بالتشويه. وما أكثر مثل هذه الكتابات أو الوثائق التاريخية ـ الأثرية في أرض الجزائر.

الفخار :

أما تواجد الفخار أو كسره، فهي مصادر ذات أهمية بالغة في تحديد أصول الحضارات التي انتجتها أو استخدمتها في الحياة اليومية. ولا بد أن نشير الى أن الفخار هو دليل هام ووثيقة بالغة الأهمية عند الأثري، ذلك لأنه كان في القديم السلعة التي استخدمت بشكل أوسع الانتشار في الحياة اليومية، عند سكان المواقع الأثرية التي ينقب فيها الأثري لاستجلاء حقائق الماضي، اذ نعرف أنها كانت تنتج لأغراض الاستخدام الحياتية، كأواني الطعام، وأوعية لحفظ أنواع مختلفة من المواد الغذائية وكالمؤونة، وحتي في الدفن، الى جانب المزهريات والمنجزات المستخدمة في المعابد والبيوت وأماكن الملتقيات.

فالفخار اذا، مؤشر علمي ومادي على نشاط وهجرات وتبادلات الشعوب وهو كذلك دليل على درجة نمو امكانياتها الصناعية وحسها الفني، بل أنه مادة ثمينة للمقارنة والتحليل، في تحديد وربط الطبقات الأثرية من موقع الى آخر، وهو بالتالي برهان على هوية الشعوب.

المسكوكات : أو العملة أو النقود. هي عبارة عن وثائق تاريخية هامة، بعكس آثار الأحداث والمشاكل عبر الماضي. وتلك هي مشاكل تتعلق بالتاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي لأمة من الأمم أو البلد من البلدان ، خلال مرحلة من المراحل التي تمر بها. وبهذه الوثائق يتمكن الأثري أو المؤرخ باستعراض منطقي وعلمي، من أن يربط بين الوقائع الاقتصادية وتأثيرها على مجرى الأحداث السياسية والعسكرية والدينية والنفسية والاجتماعية، لأن هناك نوع من التداخل المستمر بين تلك الوقائع ، مما يؤكد استحالة التقرير الحاسم بالاعتماد على واحد من هذه العناصر دون الأخذ بالمجموع.

من كل ذلك يمكننا اعتبار الحقائق المتعلقة بمسار اصدار وانتاج وتطور النقود عنصرا أساسيا، بل محورا، يرتكز عليه الأثري في دراسته للتاريخ. ونستشهد بما حصل في القرنين الرابع والخامس ميلادي من تسرب للذهب البيزنطي نحو الشرق لاستيراد البضائع النادرة في الغرب، مثل التوابل والحرير والأنسجة الموصلية والمصنوعات الأخرى من الكماليات لسد حاجات ورغبات القصور الأوروبية، كما يحصل اليوم في تسرب البترودولار من الشرق نحو الغرب لشراء الأسلحة، ثم ما تلى ذلك بعد انتصار الاسلام، من سيطرة على منابع الذهب البيزنطي (الدينار) والفضة الساسانية (الدرهم) ، وسبات أروبا في القرون الوسطى حتي القرنين الخامس عشر، والسادس عشر، حيث سقطت غرناطة وبدأت الهجمات البحرية الاسبانية على سواحل الشمال الافريقي واحتلال أجزاء منه. وعندها بدأ سيل المعادن الثمينة يأخذ اتجاه شرق ـ غرب وجنوب ـ شمال، بالاضافة الى السيل الآخر لتلك المعادن باتجاه غرب ـ شرق، بعد اكتشاف الأمريكيتين. فبدأت مرحلة النظام الرأسمالي وانتعاش الاقتصاد والتجارة الغربية وانطلاق الثورة الصناعية. كل ذلك يوضح لنا بجلاء كيف أن شحة أو زيادة الاحتياطي من المعادن الثمينة، تتحكم في الأوضاع السياسية والاجتماعية لتلك العصور.

اذا، من أجل أن يتوصل الأثري المؤرخ الى استنتاجات شبه مؤكدة عن الأحداث التاريخية، لا بد له من الاهتمام بجملة من المصادر النقدية والمعدنية الضرورية، ان هو أراد التعمق الجدي في دراسة الأحداث الماضية ، وهذه المصادر يمكن تصنيفها كالآتي :

1) مجاميع النقود نفسها، نوع معادنها ومصادر تلك المعادن، ثم الظروف السياسية والعسكرية المحيطة بتوفرها وندرتها.

2) دراسة قيم تلك المعادن وكذلك أبعاد وقياسات وحجوم وأوزان تلك النقود المضروبة والعوامل المؤثرة فيها.

3) ميدان انتشار طرزها في الأسواق المحلية والاقليمية والدولية.

4) تحديد التقسيم الجغرافي للمجاميع المكتشفة من المسكوكات، واعتبارها كمؤشر مادي، لحركة التجارة والنظام السياسي السائد وعقيدة الحكام، ثم معرفة الازدهار في ضرب تالك النقود.

5) الاشارة الى مسار التجارة العالمية في حقبة معينة من الزمن.

6) متابعة التأثيرات الاقتصادية الاجمالية ضمن الدول والامبراطوريات.

7) تصنيف وجمع ما هو مسجل في كتب التاريخ عن النقود وسكها ودور صناعتها.

8) اعداد جداول تتضمن اشارات المؤرخين والجغرافيين الى الاحداث الاقتصادية.

9) تنظيم الأرشيف الوثائقي المتعلق بالمسكوكات والمعادن، لأهميته عند دراسة طرز الكتابة والنقوش النقدية.

10) العمل على اعداد خارطة يمكن تسميتها بخارطة المسكوكات التي نقترح أن تتضمن وتبين حدود توغل وانتشار كل نقد ومعدن ومدى تداولها عبر الحدود الجغرافية والسياسية، ثم عبر الفترات التاريخية. ونتوخى من اعداد مثل هذه الخارطة، تمييز مناطق التعامل بالنقد وغيره أو التعامل بهما معا. كما كان يوجد هذا النوع من التعامل بغير النقد عند الاغريق من خلال وثيقة تعود للقرن الرابع ق.م. والتي تشير الى اتخاذ الثور وحدة نقدية في التبادل باعتبار الثور = دراخمين من الذهب[5]. وهذا يؤدي بنا الى استخلاص:

ان العادات والتقاليد الاجتماعية والاطار التفكيري لأفراد وجماعات ذلك العصر، تلعب دورا هاما في مثل هذا التعامل. ولا شك في أن أخذ هذه الحقيقة بنظر الاعتبار عند دراسة النقود، سيحقق قيمة علمية اضافية عند دراسة النقود التحليلية. ويمكننا تسمية ذلك بنقد المصادر الاقتصادية من منابعها ومصادرها.

وانطلاقا من هذه الحقيقة يمكننا القول في نطاق استعمال النقود وتداولها قديما، بأنها قد تكون مستعملة ومعروفة عند التاجر ولكنها مجهولة لدى الفلاح النائي، نظرا لطبيعة علاقات كل منهما في اطار احتكاكه بالوسط الذي يعايشه. وهذه الحقيقة تشابه كثيرا محدودية استعمال الصكوك والحوالات المصرفية في كثير من بلدان العالم الثالث حتي يومنا هذا. فهي مستعملة في الأوساط المصرفية والتجارية ولكنها نادرة على صعيد المواطنين كمجموع.

ولا بد ان نذكّر هنا بتاريخ ظهور أول نقد للتعامل، حيث كان في مراكز المدن التجارية الكبرى مثل صور وصيدا في المشرق وقرطاجة بالمغرب، وذلك خلال القرن الخامس ق.م. واستعملها الأخمينيون في القرن السادس، والاغريق في القرن السابع. بينما عرفت مصر أول نقد لها في زمن غزو الاسكندر لها.

أما مسألة ظهور أول نقد اسلامي، والظروف السياسية والاقتصادية التي تحكمت في فشله أولا (مبادرة الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ)، ومن ثمة نجاحه ويروزه كأساس للنظام المالي الدولي خلال عدة قرون[6]. حيث النقود الأموية المكتشفة في البلدان الاسكندنافية خير دليل على مدى انتشارها والتعامل بها. وتلك ظاهرة تثبت حقيقة السيادة النقدية المرتبطة بالسمعة السياسية والعسكرية والاقتصادية للدولة العربية ـ الاسلامية، حتي مرحلة الانحطاط.

ونورد على سبيل المقارنة سيادة الدولار للموقف الاقتصادي الدولي حتي عام 1962، حيث بدأ تدهوره نتيجة تدهور سمعة الولايات المتحدة سياسيا وعسكريا، بسبب تورطها في حرب الفيتنام، وما تلا ذلك من أزمتي عام 1969 و1973، واللتان كادتا أن تؤديا بجبروت هذه الدولة الى الصفر لولا نجدة البترودولار الذي بدأ ينهال على بنوك أمريكا، مما أعاد الحياة لتلك العملة المحتضرة حينذاك لتعود فتصل القمة في يومنا هذا.

وما أحوج الموقف اليوم الى اعادة بناء نظام نقدي عربي قوي. أساسه الدينار الذهبي والدرهم الفضي بنسبة 20/1، لانهاء سيادة الدولار، كما فعل الدينار والدرهم الاسلاميان في الماضي عند انهائهما لدور النومسما البيزنطي والدرهم الساساني من على مسرح السوق الدولية، وتلك هي سيادة الارادة المخططة المؤدية

الى اقامة قوة اقتصادية متكاملة ومتينة، وبها تتعزز الشخصية الوطنية التي نقصدها في هذا المقال.

مثال في نقود الجزائر : شاءت الصدفة أن يصطدم محراث فلاح جزائري بسيط في ربيع عام 1966، وهو يحرث أرضه ليزرعها، باكتشساف كنز وثائقي هام يعود الى ما قبل مئة وثلاثين عاما، وذلك في قرية قرب مدينة الأصنام، انها مجموعة تتألف من 497 مسكوكة نحاسية، تشير قراءة نصوصها الى أنها سكت لأمر دولة الأمير عبد القادر الجزائري بين الأعوام 1254 و1256 هـ (1836 ـ 1841 م)، مضروبة في (تاقدمت). هذا اضافة الى نقدين آخرين ضربا في عهد السلطان محمود بمدينة الجزائر سنة 1240 هـ (1824 ـ 1825 م)[7] اذن ماذا يمكننا أن نستوحي من مثل هذا الاكتشاف العفوي الهام؟

انه يعني :

1. تأكيد معرفتنا بوجود دار لسك النقود بمدينة (تاقدمت)، الى جانب دار صناعة السلاح فيها. وهما المؤسستان الأساسيتان اللتان تبرهنان لنا على أن الأمير عبد القادر كان يتمتع بمقومات دولة يقودها رغم تواجد الاحتلال الأجنبي (1832 ـ 1841)..

2. ان انحصار تواريخ النقود المكتشفة، بين عامي 1254 و 1256 هـ ، أمر طبيعي، لأننا نعرف أن قوات الاحتلال كانت قد غزت مدينة تاقدمت في 25 مايو 1841 واحتلتها ثم دمرتها بالكامل.

3. ان اكتشاف هذه المجموعة من الوثائق داخل اناء فخاري قرب مدينة الشلف (الأصنام سابقا) يعني ان القهر الاستعماري كان يستهدف أولا جمع كل وثيقة رسمية (بما فيها المسكوكات) يمكن أن تثبت في المحافل الدولية شرعية وجود دولة ذات كيان متكامل، فيمحو أثرها بالتدمير. وهذا بلا شك هو الذي دفع بمالك ذلك الكنز الى اخفائه في تلك الأرض المجهولة، بأمل العودة اليه بعد انكشاف غمة الاحتلال، الذي يبدو أنه كان يتوقعه، عاجلا أم آجلا، بحسه الوطني الثوري. كما ان هذه العملية تشرح لنا الحالة النفسية للشعب الجزائري في تلك الفترة من بداية الاحتلال وتؤكد المعنويات العالية لدى جماهير الشعب رغم بطش وقساوة جيوش الاحتلال.

4. ان اختيار الامير عبد القادر لبناء تاقدمت على أنقاض مدينة تاهرت التي أسسها عبد الرحمن بن رستم (144 هـ ـ 761 م) لهو أمر ذو دلالة تاريخية هامة، فهو محاولة للاصرار على تأكيد استمرارية حكم وطني (741 م ـ1841 م) واحياء لذكرى ودور الدولة الرستمية المعروفة.

5. ان الموقع الجغرافي والاستراتيجي الذي تحتله هذه المدينة (تاقدمت ـ تيارت) ، بوقوعها عند ملتقي طرق الجزائر ـ مليانة في الشمال الشرقي ومستغانم ووهران في الشمال ومعسكر في الغرب والصحراء في الجنوب، لدليل واضح على الحس الاستراتيجي لدى رجل دولة مثل الأمير عبد القادر. رغم أنه كان ينشط في عين الوقت عند تخوم ولاية قسنطينة في الشرق.

6. ان اقتصار هذه النقود على المادة النحاسية، دون الذهب والفضة، لا يقلل من أهميتها الوثائقية البتة، بل يدلنا على وضعية الحصار العسكري والاقتصادي الذي كانت جيوش الاحتلال تفرضه على امارة فتية تناضل من أجل الثبات والبقاء.

7. ان النصوص الواردة في هذه النقود هي ذات دلالات تاريخية وعقائدية ووطنية بالغة الأهمية. فهي محاولة لتثبيت السيادة الوطنية شرعا، عن طريق ضرب السكة (حسب الشريعة الاسلامية ، تكون الامارة قانونية بعد ضرب السكة باسم الأمير، وذكر اسمه في خطب الجمعة، والتي يبدو أنه تحاشاهما الأمير، بهدف جمع كلمة المقاومة الوطنية ضد الاحتلال واكتفي برفع شعارات يؤمن بها كل الشعب)، ومحاولة لخلق نظام نقدي موحد يشمل كافة القطر الجزائري. وهي أيضا عملة منظمة للتداول بموجب تقسيم مالي محسوب يتكون من صنفين، الأول هو (المحمدية) والثاني هو (النصفية)، أو ما يمكننا تسميته بالمئة دينار والخمسين دينارا (بعد مقارنة القوة الشرائية لها، من خلال كتاب وشائح الكتائب).

كما وان عملية نشر العملة الوطنية للتداول كانت نوعا من التحدي لارادة المحتل في محاولة طمس الشخصية الوطنية الجزائرية. وبهذا يتوضح تفسير تحاشي الأمير في ذكر اسمه على المسكوكة والاقتصار على نصوص وشعارات تجمع الكلمة وتمنع الانصهار في بوتقة المستعمر، كما كان يريد ذلك. ومسألة سعة انتشار التعامل بنقود الأمير، على كافة التراب الجزائري، تثبتها الاكتشافات العديدة لهذه النقود وفي بقاع متباينة من أرض الجزائر، فهذه واحدة يكتشفها أيضا فلاح بسيط (نحاسية

مضروبة في تاقدمت عام 1256 هـ) قرب قسنطينة، وتلك تكتشف في تيبازة (نحاسية مضروبة في تاقدمت عام 1255 هـ)[8]. وثالثة تكتشف عند أسس مسجد مازونة (على بعد 45 كلم عن مدينة الشلف)، وبهذا النقد الأخير يمكن تقرير تاريخ بناء ذلك المسجد، ان افتقرنا الى معلومات أخرى عن تاريخه . وبه تتجلى أهمية ودور المنقب الأثري في هذا الميدان.

اذن، فانتشار نقود الأمير في مختلف المدن الجزائرية، وفي بقاع من تونس والمغرب، لهو ذو معنى كبير في تحليل النشاط السياسي والاقتصادي لدولة الأمير عبد القادر، الذي كان همه المحافظة على الهوية الوطنية للشعب ومنع محاولات صهر شخصيته.

ونختم هذا المقال بالنقطة الأساسية في نقود الأمير، وهي الشعارات المسجلة عليها، فنقرأ :

«ان الدين عند الله الاسلام» مضروبة في الأعوام 1250 ـ 1255 هـ، أي في الأعوام 1834 ـ 1839 م.

«ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين» مضروبة في عام 1256 هـ ـ 1840 م.

«حسبنا الله ونعم الوكيل» مضروبة في عام 1258 هـ ـ 1842 م.

«ومن يبتغي غير الاسلام دينا فلن يقبل منه» وهي فضية، يصعب قراءة تاريخها.

فلنناقش الآن الأسباب والدوافع الى اختيار الأمير عبد القادر للشعارات اعلاه. ونشرها على نقوده، بعد المقارنة والتحليل، نجد أن شعار «ان الدين عند الله الاسلام» كان هدف وعقيدة الجماهير، وهو السلام الأمثل لرفعه في وجه الأفكار التي حاول نشرها الاحتلال، كما رأينا في أقوال مؤرخهم الأول وروحه الصليبية المتعصبة (انظر ص 7ـ8)، وقد استمر رفعه منذ بدء حركة المقاومة (1250 ـ 1256 هـ ـ 1834 ـ 1840 م)، التي كان همها الأول صيانة الشخصية الوطنية للشعب.

أما شعار «حسبنا الله ونعم الوكيل»، فيدلنا على العنف والمضايقة التي كان يمارسها الاحتلال لاضعاف معنويات الشعب ومقاومته له في عام 1258 هـ. وأخيرا شعار «ومن يبتغي غير الاسلام دينا فلن يقبل منه» ، وطرح هذا الشعار في المرحلة الأخيرة من مقاومة الأمير (1256 هـ ـ 1840 م) فقد جاء بعد أن نجحت قوى

الاحتلال في استمالة النفوس الضعيفة الى افكارها. وضيقت على المقاومة الوطنية الحصار العسكري والاقتصادي.

ونختم بالقول، تسعى الجامعة الجزائرية الى الاهتمام بالتنمية الثقافية وباللغة الوطنية، وتحث على وضع الأسس المتينة الوافية لضمان وحدة العمل والتطور المتوازن والمنسجم ، اضافة الى محاولة جني ثمار التكامل الفكري والحضاري بين التراث الغني والحضارة المعاصرة الحديثة.

الهوامش :

(1) أحمد طالب الابراهيمي، التجربة الجزائرية في الثورة الثقافية، مجلة الثقافة، عدد 8ـ9 (1972).

(2) محمد البشير الابراهيمي، سجل مؤتمر جمعية العلماء الثالث، قسنطينة (1955).

(3) L. Veuillot, Les Français en Algérie, éd. Centre Français, Paris, 1978, pp. 7-8.

(4) روجيه غارودي، حوار الحضارات، ص 129.

(5) A. Piettre, Les trois âges de l'économie, éd. Fayard. Paris, 1967, pp. 31-32.

M. Lombard, Monnaies et histoire, éd. Mouton, Paris, 1974, p. 7.

(7) هناك أيضا مجاميع من نقود الأمير عبد القادر، محفوظة في متاحف مدن الجزائر ووهران ومتحف الباردو بتونس والمكتبة الوطنية بباريس، وهي تنتظر الباحثين لاستجلاء أسرارها.

(8) رغم أن هنري لا فوا، في فهرسته للنقود الاسلامية، يشير الى أن الأمير توجد له قطعتان فضيتان بالمكتبة الوطنية في باريس (أصدرهما في عامي 1840 ـ 1841 م).

(9) عبد الرحمن الجيلالي، حول سكة الأمير عبد القادر الجزائري ـ الجزائر 1966. ومنير بوشناقي ، سكة الأمير عبد القادر، الجزائر 1976.